مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 15ع 01.
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

في نقد الاستشراق: من التمثيل إلى التمثيل المضاد

In the Critique of Orientalism: From Representation to Counter-Representation

عدنان فوضيل Adnane foudil *
foudil.adnane@univ-bejaia.dz
نقد ثقافي / جامعة عبد الرحمان ميرة- بجاية/الجزائر

DOI:10.46315/1714-015-001-010
الإرسال: 2025/01/04 **القبول**: 2025/07/31 **النشر**: 2026/01/16

**

ملخص:

لا يختلف اثنان في أنّ إخضاع الشرق من بين أسس الاستشراق، ليتجلى منه المفهوم الهيمني والذي عمّر طويلا في رحم الشرق، كما فهم نقاد الاستشراق خاصة نقاد العالم الثالث آليات هذه الهيمنة، والتي تعتمد على مبدأ التمثيل وهذا انطلاقا من عدّة محاور أساسية تتصدرها فكرة (صناعة الشرق)، وكان لابد أن يقابل كلّ ما سبق ردة فعل من الطرف المضاد، فكما للآخر آليات تمثيله لهذا الشرق، أصبح من الضروري تشكيل فعل مقاوم عبر صناعة تمثيل مضاد يفسح مساحات تسمح بإسماع صوت المهمش وتقديم الصورة الحقيقية لهذا الشرق، منه تحاول هذه الورقة الكشف عن آليات الاستشراق المتمثلة أساسا على فكرة المضاد والقائم على مبدأ المقاومة وهذا عبر ثلاثة نماذج نقدية هي :إدوارد سعيد، غياتري سبيفاك، حميد دباشي.

كلمات مفتاحية:الاستشراق، التمثيل، التمثيل المضاد، المقاومة

Abstract:

There is no disagreement that the subjugation of the East is among the foundations of Orientalism, to reveal the hegemonic concept that has long existed in the womb of the East, as Orientalist critics, especially Third World critics, understood the mechanisms of this hegemony, which depends on the principle of representation, and this is based on several basic axes, led by the idea of (making the East), and all of the above had to be met with a reaction from the opposing party, as the other has its mechanisms for representing this East, it has become necessary to form a resistance act through the creation of a counter-representation that opens up spaces that allow the voice of the marginalized to be heard and present the true image of this East, from which this paper attempts to reveal the mechanisms of Orientalism, which are mainly represented by the idea of the counter and based on the principle of resistance, and this is through three critical models: Edward Said, Gayatri Spivak, Hamid Dabashi.

Keywords: Orientalism, representation, counter-representation, resistance

**

* - الباحث المُرسل: foudil.adnane@univ-bejaia.dz

***- تقديم:**

إنّ الحديث عن الاستشراق لهو حديث عن علاقة من نوع خاص اتخذها الغرب في محاولة دراسة وفهم ومن ثمّ السيطرة على الشرق، والذي دام عقودا من الزمن، وعبر عدّة أشكال من الهيمنة ساهمت بشكل أو بآخر تكميم صوت هذا الشرق، فالاستشراق هو **" أسلوب للهيمنة على الشرق وإعادة صياغته وتشكيله وممارسة السلطة عليه."** (سعيد، 1995 صفحة 36)

ويظهر هذا المفهوم والذي وضعه إدوارد سعيد أهداف الاستشراق الرئيسية، وآلياته الخاصة، ولعلّ فعل إعادة الصياغة والتشكيل هو من بين أبرز الآليات، والتي تسمح بتسهيل السيطرة، وهذا عبر تفكيكه وإعادة تشكيله وفق منظور هذا الغربي، جاعلا منه عالما بدائيا تستوجب موافقته من أجل تثقيفه، وهي تبريرات مكّنت هذا الغربي الحصول على مصوغ إنساني لتبني الشرق، وفرض السيطرة عليه

لم يكتف الغرب بمحاولة فهم الشرق، بل تعدى ذلك حدود الواقع نحو صناعة وخلق صور مخالفة تماما للجغرافيا والثقافة عامة، وتُظهر الأدلة التاريخية ذات البعد السياسي والمعرفي على السواء هذا التوجه مبرزة التفوّق المعرفي وفي نفس الوقت تظهر صمتا غريبا من طرف الشرق، ليصبح الاستشراق على حدّ تعبير (بن علي، 2018 صفحة 132) عبارة عن مجموع المعارف التي أنتجها الغرب عن هذا الشرق، والمخيف في المر أنّ هذه المعرفة تبقى الوحيدة والصادقة عن حقيقة الشرق، ومن جانب آخر لم يستطع الشرقي أن يصنع صورة تعريفية عن ذاته.

لا يختلف اثنان في أنّ إخضاع الشرق من بين أسس الاستشراق، ليتجلى منه المفهوم الهيمني والذي عمّر طويلا في رحم الشرق، كما فهم نقاد الاستشراق خاصة نقاد العالم الثالث آليات هذه الهيمنة، والتي تعتمد على مبدأ التمثيل وهذا انطلاقا من عدّة محاور أساسية تتصدرها فكرة (صناعة الشرق)، أي ابتداعه في كلّ المجالات: ثقافيا وسياسيا وسوسيولوجيا، ...إلخ.

منه مرّ ابتداع أو خلق الشرق عبر مسارين مختلفين يتمثل الأوّل في تكريس خطاب علمي متضمن علماء وشعراء وباحثين أسهموا في الكتابة عن الشرق، وبالتالي تمثيله بلاغيا (لغويا)، أمّ الثاني فيتخذ شكل مؤسسة قوامها الإمبريالية والتي لعبت دورا محوريا في تكريس القوة والهيمنة للغرب والمساهمة في تحويل هذا الشرق.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

منه ستحاول هذه الورقة التركيز على عرض إشكالية تمثيل الشرق من طرف الغرب، وفي الوقت نفسه سنستعرض محاولات مجموعة من النّقاد والذين يشكلون الجهة المضادة عبر عرض مشاريعهم النقدية المضادة بوصفها تشكّل وعيا مضادا للهيمنة الغربية، وهذا عبر ثلاثة محاور كبرى يمثلها ثلاثة من النقاد المعروفين ألا وهم كل من (إدوارد سعيد، غياتري سبيفاك، وحميد دباشي)، وهذا وفق منهج وصفي تحليلي يعرض مشروع كل ناقد مركزين على أهم المنطلقات الفكرية لهؤلاء.

1/ في تمثيل الشرق:

يعتبر التمثيل من المصطلحات التي نالت قدرا كبيرا من الدراسة، وفي نفس الوقت من بين المصطلحات الأكثر تعقيدا لارتباطها بشتى العلوم من جهة، ولعلاقتها من جهة أخرى بالعملية الذهنية في استحضار الواقع وإعادة تمثيله على شكل صور تنوب عن هذا الواقع، ولقد استطاع الغرب أن يوظف هذه الآلية بشكل مريب في مشاريعه الإمبريالية، عبر إقناع العالم بصورة الشرق (المرسومة بطريقة بارعة)، التي تستدعي تدخلا لإخراجه من ظلماته نحو نور المعرفة، ليصبح بهذا التمثيل هو إعادة خلق الآخر وفق صورة معدلة وفق مقاسات غربية، ومنه صناعة شرق جديد وفق هذا المنطق الغربي.

أضحى الشرق الجديد تابعا سياسيا وثقافيا للغرب، وفي نفس الوقت بات صوته مصادرا، فهو المنتمي جغرافيا لكنه منفي الهوية ومغترب الثقافة، وأكثر من ذلك أصبح مخبرا مفتوحا لشتى أنواع التجارب الإناسية؛ إنّها ببساطة **" رؤية الأنا الأوربي للآخر اللاّ أوروبي، علاقة الذات الدارس بالموضوع المدروس"**. (حنفي، 1991 صفحة 29)

لا تقتصر الرؤية هنا على مبدأ نقل الصورة، عبر إظهار الاختلافات الثقافية والأجناسية، بل أضحى فعل التصرف في نتائج الدراسة بما أنّ اللاّ أوروبي أضحى موضوعا للدراسة، تصرّف يقوم على مبدأ الفرضيات، وهذه الأخيرة يمكن اختزالها وتأثيثها لتصبح على مقاس تطلعات الآلة الإمبريالية الغربية، منه أصبحت قوة الاستشراق على حسب رأي (تبزيني، 1996 صفحة 308، 309) ولا تزال باستطاعتها احتضان وتشكيل ممثلي عن الآخر الشرقي محدثة بذلك شروخات عميقة في الثقافة الشرقية.

طبعا كان الهدف المحوري للاستشراق هو إحداث فجوة ثقافية داخل العالم الشرقي، فجوة تشعر الفرد المنتمي إلى هذه الثقافة بالدونية والتقزيم، وفي المقابل تظهر هذا الغربي بصورة العظمة والقوة، والمعروف أنّ صناعة " مبدأ التمركز" قد ساهم بشكل كبير في الإبقاء

على مسار التعظيم، ليتشكل تلقائيا المبدأ المناقض ألا وهو الهامشي، واللامنتمي...، وغيرها من المصطلحات ذات البعد النفسي.

ولم يتوان الغرب في توظيف كلّ أشكال الهيمنة عبر كسر أيّ حركة يمكن أن تزعزع مركزيته وتفوقه، فمن أجل تحقيق **" هيمنة شاملة على الجماهير، لابد من اللجوء إلى المؤسسات الثقافية التي ستلعب دورا خطيرا في القضاء على الوعي المعارض في المجتمع وتنشئة الأفراد على القبول بوضعها، بل والاقتناع بالطابع الهيمني للدولة** (لونيس، 2018، صفحة 42)

يبقى هذا الطرح مرتبط أكثر بالدولة الحديثة، لكن الاستشراق كآلية اعتمد على الأفراد ذوي النفوذ المعرفي والثقافي، من أجل لعب هذا الدور عبر إثبات الذات أوّلا ثم الاندماج في الثقافة المحلية، وصولا إلى التأثير، وهي آخر وأخطر مرحلة تساعد في الإقناع والتسيير حسب أهواء المهيمِن.

يلخص إدوارد سعيد من خلال كتابه " تعقيبات على الاستشراق" العلاقات التي تربط الغرب بالشرق، ليضع القارئ أمام صورة كانت ولقرون صورة باهتة وغير مفهومة، إذ يركز أوّلا على العلاقة التاريخية والثقافية التي تربط هذا الغربي بالشرق عموما مبرزا فيها صورة الأسمى(الغربي) في علاقته بالتابع (الشرقي).

ثانيا يذكر بنوع مفصل النظام التدريسي العلمي والذي انتهجته الدول الغربية إبان القرن التاسع عشر، والتي فتحت إمكانية التخصص في الثقافات الشرقية، وهو الأمر حسبه (سعيد، تعقيبات على الاستشراق، 1996، صفحة 34) الذي يجعل من هذا الشرق موضوعا للدراسة أو مخبرا مفتوحا، مانحا بهذا صورة متوحشة عن الشرق، أمّا ثالث الافتراضات فيركز على الجانب الأيديولوجي، والذي اعتمد مبدأ التمثيل صانعا بذلك صورا وأخيلة فانتازية عن عالم الشرق.

يظهر التمثيل إذا وفق هذا الطرح الذي قدمه إدوارد سعيد على عدّة مستويات ساهمت كلّها في تعتيم صورة الشرق، وتقديمه على شكل مكان أسطوري ومتوحش، ليتحوّل هذا التمثيل المصادر إلى شكل من أشكال **" الهيمنة منها ما يظهر في شكل آليات المصادرة السياسية والجغر افية، ومنها ما يتخفى وراء أشكال رمزية"** (لونيس، 2018، صفحة 44) .

ولعلّ المقصود بالرمزية هنا هو كلّ أنواع التوظيف الفنيّ من كتابة ورسم وصولا إلى فنون المسرح والسينما، مع فرض أنظمة سياسية تخدم بالدرجة الأولى الأنظمة الكولونيالية، وهذا عبر مصادرة الصوت المعارض، ويفهم هنا وجود نوعين من المصادرة على الأقل، منها

السياسية والجغرافية، ويقصد بها بالدرجة الأولى ما ارتبط بالحركات الاستعمارية وتابعاتها، والنّوع الثاني المرتبط بالبنية الخطابية الغربية.

2/ التمثيل المضاد ونقد الاستشراق:

كان لابد أن يقابل كلّ ما سبق ردة فعل من الطرف المضاد، فكما للآخر آليات تمثيله لهذا الشرق، أصبح من الضروري تشكيل فعل مقاوم عبر صناعة تمثيل مضاد يفسح مساحات تسمح بإسماع صوت المهمش وتقديم الصورة الحقيقية لهذا الشرق، وهذا عبر الكشف عن تلاعبات الاستشراق مثلما فعل " إدوارد سعيد" عبر مشروعه النقدي والذي كشف عن آلياته خاصة تلك المتخفية بلاغيا، أو عبر محاولات إسماع صوت التابع مثلما تحاول " سبيفاك" أن تفعل، وهذا عبر صناعة معرفة مقاومة، وصولا إلى حميد دباشي والذي يعتمد على فكرة التمثيل الذاتي المتمرد وينادي بإنشاء مجتمع نقدي من المفسرين المضادين.

مما سبق سنحاول تتبع الوعي النقدي المضاد والذي يحاول بدوره انتاج تمثيل مضاد قائم على مبدأ المقاومة وهذا عبر ثلاثة نماذج نقدية هي :

2-1 إدوارد سعيد:

أدرجنا في حديثنا عن التمثيل سابقا الكثير من مقولات إدوارد سعيد، والذي لم يدخر أيّ جهد في كشف النقاب عن هذه الآلية منذ كتابه " الاستشراق، لكن مشروعه لم يقف عند حدود الكشف والإظهار، فتلك مرحلة أولى يمكن إدراجها ضمن مجال " نقد الاستشراق"، أما ما يهمنا نحن في هذه الدراسة هي المرحلة الثانية، والتي تدخل حيّز " المقاومة"، مقاومة الاستشراق والذي صنع صورة مزيفة عن الشرق، لهذا نجد إدوارد سعيد مهتما بأنظمة الخطاب الاستشراقي عبر دراستها ونقدها.

ففهم آلية عمل هذه الأنظمة يمنح مساحة لبناء نظام مقاوم، يستطيع من خلاله مثقفو العالم الثالث من تمثيل أنفسهم، منه استطاع إدوارد سعيد تقديم عرض لإبداعات هؤلاء المثقفين مبرزا الانتقال من حالة الهامش نحو حالة مقاومة، **" فللمرة الأولى يصبح الأفارقة والآسيويون، _ عرب وغيرعرب_ الذين كانوا دائما موضوعا لعلم الانسان {الأنثربولوجيا} الغربي، وللسرديات الغربية، والنظريات التاريخية والتكهنات اللغوية الغربية (...)، خلاقين لآدابهم وتواريخهم الخاصة، كما يصبحون أيضا قرّاء ناقدين لسجل المحفوظات الغربي"** (سعيد، الثقافة والامبريالية، 2004، صفحة 11)

لا يمكن غض الطرف في أنّ هذه القراءة للمنجز الأدبي والنقدي لمثقفي العالم الثالث، والذي يستعرضه إدوارد سعيد في هذا الطرح هو في حقيقة الأمر دعوة ضمنية للمشاركة في تشكيل وعي تمثيلي، ينتقل من التمثيل الغربي لهم إلى تمثيل مضاد ذاتي يغلق كلّ أبواب مصادرة أصواتهم من طرف الغرب، والملاحظ في أنّ إدوارد سعيد يركّز على القراءة النقدية لمنتجات الغرب، وهذا لفهم ومن ثمّ صناعة مقاومة قادرة على صنع تاريخ ثقافي خاص بالمثقف المحلي.

لكن في الوقت نفسه يعيد إدوارد سعيد (سعيد، صور المثقف، 1996، صفحة 27، 28) تأثيث مفهوم ودور المثقف، ليصبح أكثر فعالية، إذ يتمحور دوره في توضيح رسالته أو وجهة نظره وتبيان مواقفه وفلسفته بصفة علنية، وفي نفس الوقت يتوجب عليه مجابهة المعتقد والتصلب العقائدي ولا يكون سببا في إعادة انتاجها.

طبعا قد يفهم من هذا التعريف أنّ إدوارد سعيد يقصد به المثقف غير المنفي، لكنه يصلح أيضا في حالة المنفى، وهي الحالة التي منحها هذا الناقد حيّزا كبيرا بوصفه ينتمي إلى فئة المثقفين المنفيين، والذين يعيشون منفى مزدوجا، نفي مكاني وآخر ثقافي، إذ يركّز على دور هذا المثقف المتواجد في الغرب لتكريس مبدأ التمثيل المضاد، وهذا بمقاومة كلّ أشكال التمركز المعروفة، ومحاولة الخروج من دائرة التهميش الممنهجة.

وقد أشار حميد دباشي في معرض كتابه (دباشي، 2015، صفحة 30) إلى موقف إدوارد سعيد من دور ظروف المنفى وحياة الهامش والأطراف في التحرر من أفخاخ المؤسسات التي تنتمي إلى السلطة (سلطة سياسية، سلطة اكاديمية، سلطة اجتماعية...إلخ) ويعتبر هذا الدور إيجابيا أو بتعبير آخر فعالا؛ وهي قد تؤدي إلى إنتاج بدائل ثقافية ومعرفية وسياسية تتجاوز الدائرة الضيقة للمراكز نحو أفق أوسع.

لا يمكن أبدا لهذه البدائل الثقافية أن تجد سبيلا نحو تمثيل ذاتي مضاد للمثقف، إذا ما اختلى إلى السلبية وأصبح مثقفا مواليا للآلة الإمبريالية، أو أصبح غير منتج، فعلى المثقف المنفي أن يفهم أنّه حامل لرسالة تحررية، بهذا يعتمد إدوارد سعيد في مشروعه على تجسيد صورة مختلفة وخلاقة لنوع من المثقفين الذين يستطيعون البروز بشكل ملفت في المنفى، بروز يكون موسوما بالمقاومة ضد كلّ أنواع التمركز المعروفة وفي نفس الوقت يستعيد أحقية تمثيل ذلته المصادر من نفس المركزيات سابقا، والتي تحاول دائما تمديد هذه المصادرة لأطول مدة ممكنة.

نادي إدوارد سعيد حسب (دباشي، 2015، صفحة 289، 290)بمثقف من نوع خاص والذي يطلق عليه تسمية (المثقف البرمائي)، والذي يقابله في الضفة المعاكسة تماما (مثقف التهميش المزدوج)، فالأوّل رشيق يجوب المساحات المشتركة بين محيطين متشابكين، متحرر ينتمي إلى غير مكان، فهو مابعد وطني(ما بعد كولونيالي)، إذ يحتضن الوطن والمنفى معا ولديه قدرة استيعاب الهنا والهناك، وفي الأخير لم يعد المثقف البرمائي مقيدا بالحدود القومية الباطلة (والمخترعة كولونياليا)، أمّا الثاني فيؤمن علماء الاجتماع أنّ شرط المنفى الأساسي هو التهميش المزدوج، والذي يتميز فيه المثقف بالحرمان الذاتي، ليصبح وطنه هو اللاّمكان يتصف بالنكوصية ومسكون بالحنين.

يتطلب التمثيل المضاد بوصفه آلية من آليات المقاومة خاصة لدى المثقف المنفي أن يكون مثقفا إيجابيا يستطيع التعامل والتشابك مع القضايا المحورية ومستعدا تماما لإسماع صوته وإبراز حضوره في كلا العالمين، فالمثقف البرمائي رغم انطلاقه من قاعدة المنفى بوصفها المكان الذي وضع فيه، ورغم السلبية التي تحاط به إلاّ أنّه لا يجب أن يجنح إلى هذه السلبية، بل يجعلها دافعا لمقاومتها ومقاومة النظام الذي أوجدها.

2-2 غياتري سبيفاك ودفع التابع إلى التمثيل الذاتي:

لم تختلف سبيفاك عن إدوارد سعيد في طريقة سعيها للوصول على درجة التمثيل المضاد الذاتي، فهي بدورها انطلقت من فضح المركزيات الأوروبية والسلطات القمعية الأمبريالية، عبر إظهار ثنائية (المركز/التابع)، وهذا ضمن دراسات ما يسمى بدراسات التابع، وتنطلق من سؤال محوري في دراستها والذي أضحى فيما بعد عنوانا أساسيا لمؤلفها (هل يستطيع التابع أن يتكلم؟)، لتبدأ رحلة محاولة الإجابة عن هذا السؤال.

إذ ركّزت على طرق تمثيل العالم الثالث بوصفه موضوعا من طرف الخطابات الغربية الكولونيالية، والتي أنتجت محور التابع المهمّش والمهيمن عليه، وهي النتيجة حاول هذا الغربي الإبقاء عليها في حالة مستمرة بما أنّها تخدم مصالحها الأمبريالية، ولعلّ دراستها هذه هي نتيجة منطقية على حسب تقدير (سعيد، تأملات حول المنفى ومقالات أخرى 1، 2004، صفحة 220) في حديثه عن بزوغ وعي نقدي معارض لدى شعوب العالم الثالث، إذ يعرف الوعي الأقلوي اختمارا ما أدى إلى الكثير من الإنجازات والتي يمكن اعتبارها بمثابة تحديا صارخا في وجه المركزية الأوروبية"

طبعا يدخل هذا التحدي ضمن فعالية تشكيل وعي مقاوم يصل إلى حد التمثيل الذاتي، ورفض أيّ محاولة جديدة للتمثيل بالنيابة وهذا عبر المواجهة، مواجهة كلّ المؤسسات التي لا تزال تتعامل بمنطق متعال تتشكل على إثره ثنائيات متضادة على شاكلة المركز/ الهامش، ولا تعني هنا المواجهة

الدخول بنفس السياسة، إذ ترى سبيفاك أن الدعوة إلى المواجهة لا يستدعي نهج نفس طرقهم، ولكن تعلم التمثيل الذاتي عبر إسماع صوت التابع في شتى المجالات، ولكلّ أعضاء التابع بما فيهم " المرأة الملوّنة" والتي تعاني حسبها قمعا مضاعفا من كلا الفحلين (الرجل الأبيض، والرجل الأسمر).

وللتذكير لم تنل دراسات التابع استجابة موسعة في بداياتها، وتبقى الدراسات ما بعد الكولونيالية هي الوحيدة تقريبا والتي استجابت لطروحات دراسات التابع، فقد استطاعت الدراسات ما بعد الكولونيالية أن تضم إلى صفوفها جماعة من الشباب أسّسوا تيارا مقاوما يسمى ب "دراسات التابع"، فهي دراسات تدخل ضمن اهتمامات الدراسات ما بعد الكولونيالية خاصة في شقه، وصولا إلى محاولة إسماع صوت التابع في مرحلة ما بعد الكولونيالية.

إنّ تبنّي دراسات التابع من طرف الدراسات ما بعد الكولونيالية قد منح لها قاعدة معرفية من جهة، ومن جهة أخرى منحها صوتا مسموعا لما للدراسات ما بعد الكولونيالية من وزن على الساحة النقدية والسياسية، خاصة بضمها لألمع نقاد القرن العشرين بدءا بالأب الروحي " فرانز فانون"، كما نجد كل من جورج لامينج، ألبير ميمي، وصولا إلى الثالوث المقدس للحركة إدوارد سعيد، هومي بابا، وغياتري سبيفاك.

من كلّ هذا يمكن القول بأنّ مقاربة سبيفاك تقوم على حسب تعبير رامي أبو شهاب على نزعة نقدية موجهة ضد المفكرين الغربيين، فأعلام الفكر الغربي من أمثال فوكو، غرامشي، دولوز، وماركس، وعلى الرغم من صدق نوايا بعضهم غير أنّهم كانوا في معظم الوقت يعزّزون تهميش الطبقات المهمشة، ولأنهم ببساطة منقطعون عن السياقات الثقافية والحضارية والتاريخية.

وتمنح سبيفاك حسب)شهاب, 2023(هنا مثالا حول إلغاء الاحتفال الهندوسي (الساتي) والذي تقوم فيه الأرامل بحرق أنفسهن ذاتيا، وقد قامت الإدارة البريطانية بإلغائه بداعي انقاذ المرأة الملوّنة من الرجل الأسمر.، إذ يتوجب على التابع أن يتخلص من كلّ هذه المحاولات والتدخلات من أجل تمثيله ويأخذ المبادرة لتمثيل ذاته بذاته.

في ختام كتابها المثير للجدل، تعلن سبيفاك بنوع من اليقين المعرفي والذي سيتراءى للقارئ على أنّه إقرار سلبي مجيبة عن سؤالها (هل يستطيع التابع أن يتكلم؟)، تقول: **" إنّ التابع لا يستطيع الكلام، لا توجد فضيلة في قائمة غسيل الملابس العالمية مع المرأة باعتبارها عنصرا تقيا. لم يتلاشى التمثيل"** (سبيفاك، 2020، صفحة 115) هو أشبه ببيان ودعوة أخيرة ضمنية لمقاومة التمثيل بالنيابة، فالغرب لن يتوقف عن إصدار نسخ جديدة ومنقحة لتمثيل العالم الثالث وإبقائه تابعا، لطالما يخدم هذا خططها السياسية والاقتصادية، ويحافظ على مركزيته، وهو الأمر الذي سيثيره بعدها – سبيفاك- حميد دباشي في السطور التالية لهذه الورقة البحثية.

3-2 حميد دباشي، المفسر المضاد:

يفتتح حميد دباشي (دباشي، 2015، صفحة 14)مقدمة كتابه " ما بعد الاستشراق" بصورة كاريكاتورية مدرجة في صحيفة **columbus Post-dispatch العدد 04 سبتمبر 2007**، حيث اتهم المحتجون على الرسم الصحيفة بالمشاركة في تعميم الاسلاموفوبيا، وفي تصوير عدو مختلق في صورة صراصير تخرج من بالوعة الصرف الصحي.

سيشير لاحقا في ثنايا كتابه (دباشي، 2015، صفحة 16) عن مرحلة جد متقدمة من التمثيل بالنيابة، هو تمثيل من نوع مختلف، لكنه قبل هذا يستعرض مشروع إدوارد سعيد في تقفي آلية التمثيل في المرحلة الكولونيالية وممثليها والذين مكّنتهم سلطتها من الكتابة والتمثيل عن الشعوب التي حكموها، وهذا بشرحه لشروط السيطرة والتمثيل بالنيابة، ولا يقف عند حدود هذه الملاحظات، بل يسعى كما يقول إلى تحديث وتفصيل مضامينها وفق معطيات جديدة.

من جهة أخرى ترى (قاتوج، 2017) أنّ الأوضاع قد تغيرت، وفهم حميد دباشي أنّ طروحات إدوارد سعيد رغم أهميتها النظرية، إلاّ أنّها لا تؤدي إلاّ لفهم الوضعية السابقة والموازية لمرحلة ما بعد الكولونيالية، ولكن يمنح أهمية كبيرة لمشروع إدوارد سعيد حول المثقف المنفي، والذي بمقدوره أن يأخذ المبادرة لتمثيل مضاد ذاتي، وهذا عبر تكوين أو بناء مجتمع نقدي من المفسرين المضادين، ويؤكد على ضرورة المفاوضة على مواقع التمثيل الذاتي الفاعل مركزا بذلك على اعتماد مشروعي كل من سبيفاك وإدوارد سعيد.

ولا يقصد بالمفاوضة هنا محاولة استمالة الآخر للسماح للمثقف الشرقي أخذ مكانته الأصلية، بل يقصد أخذها بنفس القوة التي أخذت منه، او بالأحرى استرجاعها، ومنه نستنتج من طرحه هذا أنّه يقرّ صراحة بأهمية كل من مشروع إدوارد سعيد وكذا مشروع غياتري سبيفاك في تكوين ناقد من مواصفات المثقف البرمائي على حد تعبير إدوارد سعيد، مثقف رشيق يجوب المساحات المشتركة بين محيطين متشابكين، متحرر ينتمي إلى غير مكان، فهو مابعد وطني (ما بعد كولونيالي)، إذ يحتضن الوطن والمنفى معا ولديه قدرة استيعاب الهنا والهناك.

يحاول دباشي إيجاد مخرج لمأزق التمثيل، أي تمثيل المنفى لدى إدوارد سعيد وغيره من المثقفين، خاصة أنّ إدوارد سعيد حامل لمشروع ما يسمى بـ (مثقف المنفى الفاعل)، (لونيس، 2018، صفحة 242)، إذ يرى أنّ الثقافة المعاصرة مبنية على تجربة (المنفى) التي ميّزت القرن العشرين، وهو المشروع الذي يستند إلى فكرة إيجابية المنفى في إعادة بناء الفكر المعاصر وتفتحه على الثقافات العالمية، على عكس المتداول في المفاهيم العامة والسلبية للمنفى.

ولعلّ المقارنة التي أقامها حميد دباشي (دباشي، 2015، صفحة 37) بين أدرنو وإدوارد سعيد تؤكد تمتع إدوارد سعيد بقراءة إيجابية وملفتة للمنفى تسمح بحضور فعّال لهذا المثقف المنفي، وهي المقاربة التي يمكن أن تحدث تغييرا تاريخيا في دوره.، وهي عملية التحديث التي تحدث عنها لمشروع إدوارد سعيد، عبر إسقاطه على معطيات تاريخية جديدة خاصة في أمريكا.

من جهة أخرى سعى (دباشي، 2015، صفحة 16، 17)إلى أبعد من مجرد التحديث إذ لا يقف عند حدود تشخيص آليات استمرار تمثيل الشرق بالنيابة، بل الذهاب أبعد من ذلك نحو إيجاد الكيفية التي تمكننا من مقاومة تلك الرغبة، وكذا الرد المضاد لهذا التمثيل، ولن يتأتى ذلك إلاّ عبر انشاء مجتمع نقدي مضاد، يتسم بالتحرر والقدرة على مجابهة السلطة بكلّ أنواعها، خاصة أمام التغييرات التاريخية التي يعرفها العالم مرارا، والتي تستدعي فهمها ومجابهة أي محاولة لإعادة إحياء آليات التمثيل الغربية للشرق.

يسبقنا الغرب دائما بخطوة، فهو على علم تام أنّ الشرق لن يقف مكتوف الأيدي أمام هذه المحاولات، فكان دائما ما يجد طرقا جديدة للإبقاء على أنظمة هيمنته على هذا الشرق، ويعرض حميد دباشي (دباشي، 2015، صفحة 149) مراحل الهيمنة هذه بدءا بالكولونيالية الأوروبية، مرورا بمرحلة ما يسمى بـ"دراسة المناطق".

والمعروف عن هذه الدراسات أنّها قائمة على جمع المعلومات الاستخباراتية والتسويغ الأيديولوجي في مرحلة الصراع مع الاتحاد السوفياتي، وبعد انهياره ظهرت للعيان مرحلة جديدة تضمنت طبقة من الدعاة المتبجحين من أمثال "برنارد لويس" عملهم هو ابتداع نسق من الأفكار العميقة والتصورات الوهمية الخطرة هدفها الأسمى البحث عن مسوغ للحرب.

طبعا هذا العرض يؤكد على الطرح الذي يسجله هنا حميد دباشي، وهو طرح قائم على ضرورة تجديد طرق المقاومة، وهذا عبر انشاء المجتمع النقدي المضاد والذي يتحتم عليه أن يكون فعالا يستطيع فهم الحالة الآنية، وإيجاد حل مقاوم يعيد للشرق حرية تمثيل ذاته، دون وصاية أو نيابة.

3- النتائج:

في ختام هذه الورقة نقدم مجموعة من النتائج حول موضوعنا:

- استطاع نقاد العالم الثالث من فهم آليات التمثيل بالنيابة والتي انتهجها الغرب منذ اختراعه للشرق الأسطوري، منه كان لابد على هؤلاء النقاد أن يتحركوا وجهة هذا المعطى السلبي والذي يبقي على الشرق تابعا دائم للغرب، سواء عبر شرحه أو نقده، أو عرض مشروع مقاومته.

- لقد كان لمشروع إدوارد سعيد منذ شرحه للاستشراق وصولا إلى طرحه مفهوم المثقف المنفي الفعّال دورا بارزا في تجلي فكرة المقاومة لدى النقاد اللاحقين خاصة نقاد المنفى، وهو الأمر الذي أسفر في النهاية بروز نقاد من أمثال غياتري سبيفاك، وحميد دباشي.
- استطاعت غياتري سبيفاك أن تفكك آليات التمثيل بالنيابة عبر إظهار مواقع التابع، وفضح الكولونيالية الغربية من جهة، ومن جهة أخرى استطاعت أن تقدم نقدا للنقاد الغربيين الذين أخذوا على عاتقهم الدفاع عن هذا التابع، وهذا عبر إظهار عدم جدوى محاولاتهم، والتي أدت حسبها إلى نتائج عكسية، وهي الإبقاء على التهميش.
- من جهته لم يتخلّف حميد دباشي عن أخذ دوره ضمن دائرة النقاد الذين انتقدوا الآلة الغربية في تمثيل الشرق، وهو الذي استعرض لمشروع كل من إدوارد سعيد وسبيفاك، ليبين في الأخير أنّ الغرب لن يتوقف عن تجديد آليات التمثيل لديه، وبالتالي ضرورة إنشاء مجتمع نقدي من المفسرين المضادين، على شاكلة المثقف البرمائي الذي نادى به إدوارد سعيد.
- تكمن مهمة هذا المجتمع النقدي المضاد، في ضرورة فهم الآليات الجديدة وفق التغيرات التاريخية الآنية، وبالتالي المرور نحو مرحلة انتاج أنظمة مقاومة على كلّ الجبهات.

4- خاتمة:

كخلاصة عامة؛ نشير على أنّ هؤلاء النّقاد قد استطاعوا فهم أبعاد الاستشراق والتي لم تخرج عن دائرة الهيمنة الغربية والوصاية على الشرق، وكان لمبدأ التمثيل دورا حاسما في تمرير مشروع الهيمنة، لكن في المقابل كانت لدعوة هؤلاء النقاد والذين يتصدرهم إدوارد سعيد دور مقاوم أنتج بالمقابل تمثيلا مضادا، وهذا عبر كشف تلاعبات الإمبريالية الغربية.

**

5- المصادروالمراجع :

1-المراجع:

1. إدوارد سعيد، الإستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت، لبنان، 1995
2. إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط3، 2004.
3. إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى ومقالات أخرى 1، تر: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، ط1، 2004.
4. إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، تر: صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1996.

5. إدوارد سعيد، صور المثقف، تر: غسان غصن، النهار للنشر، دط، بيروت، 1996.
6. حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، التراث والتجديد موقفنا من التراث الغربي، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، دط، 1991.
7. حميد دباشي، ما بعد الاستشراق، المعرفة والسلطة في زمن الارهاب، تر: باسل عبد الله وطفه، منشورات المتوسط، إيطاليا، ط1، 2015.
8. طيب تيزيني، من الاستشراق الغربي إلى الاستغراب المغربي، دار المجد للطباعة والنشر والخدمات الطباعية، دمشق، ط1، 1996.
9. غياتري سبيفاك: هل يستطيع التابع أن يتكلم؟، تر: خالد حافظي، صفحة سبعة للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 2020.
10. لونيس بن علي: إدوارد سعيد، من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، (كيف نؤسس للوعي النقدي)، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018

2-المو اقع الالكترونية:

1- رامي أبو شهاب، غياتري سبيفاك: التابع بين العجز عن التمثيل والاستثمار، الموقع الالكتروني: www.alquds.co.uk، تاريخ الانزال: 04 جوان 2023.
2- ماد قبريال قاتوج، طروحات إدوارد سعيد وحميد دباشي في الاستشراق وما بعد الاستشراق: دراسة تحليلية مقارنة، مقال نقدي، الموقع الالكتروني: https://www.ahewar.org/، تاريخ الانزال: 2017 / 4 / 17.

****